

## المرأة والخمرة رمزان في الشعر الصوفي

يوسف هادي بور نهزمي\*

### الملخص

للشعر الصوفي رمزان مهمّان، يستخدمهما الصوفية دلالة على المحبوب والحبّ الإلهي، وهما المرأة والخمرة وما يردفهما وما يتعلق بهما. يلاحظ دارس الأدب الصوفي أشعارا كثيرة، بدت فيها المرأة رمزا موحيا دالا على المحبوب، وهو الله سبحانه تعالى. ويعدّ الشعر الصوفي من هذه الوجهة، شعرا غزليا تمّ للصوفية فيه التأليف بين الحبّ الإلهي والحبّ الإنساني، والتعبير عن العشق في طابعه الروحي من خلال أساليب غزلية موروثية كان قد تمّ تكوينها ونضجها الفني. يقدم هذا المقال نماذج شعرية تتجلى فيها ألوانا من هذه الرموز.

الكلمات الدلالية: المرأة، الخمرة، الرمز، الشعر الصوفي.

\*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في كرج.

تاريخ الوصول: ١٤/١٠/١٣٨٩ هـ. ش

تاريخ القبول: ١٠/٧/١٣٨٩ هـ. ش

## المقدمة

لا يخفى عن الباحثين والنقاد أن الرموز الأكثر تجلياً في هذا النمط الشعري ينقسم إلى قسمين: هما المرأة والخمرة. وها نحن حاولنا أن نحلل تلك الظاهرة المتواجدة في هذا الشعر بعد تحليلنا قصائد شتى لعدد من الشعراء المتصوفة، وفقاً للتقسيم الذي سبق ذكره.

## ألف. استخدام المرأة في الشعر الصوفي

ولقد بدت هذه الظاهرة في أواسط القرن الثاني الهجري، ولكنها لم تلبث أن اندفع تيارها في القرون التالية. ومن بواكير الغزل الصوفي الذي يرمز إلى المحبوب قول رابعة العدوية<sup>١</sup>، حيث تقول:

تركتُ هَوَى ليلي وسُعدَى بمعزلٍ  
ونادتُ بِيَ الأشواقِ: مهلاً! فهذه  
وعُدْتُ إلى مصحوبِ أوّل  
منازلٍ مَنْ تَهَوَى رُويدَكَ! فانزلِ

(بدوي، ١٩٧٨م: ٢٤)

وترمز في مكان آخر قائلة:

راحتي، يا إخوتي، في خلوتي  
لم أجد لي عن هواه عوضاً  
حيثما كنتُ أشاهدُ حُسنه  
إن أمتُ وجداً وما ثمَّ رضا  
يا طبيب القلب يا كلَّ المُنى!  
يا سروري وحياتي دائماً  
قد هجرتُ الخلقَ جمعاً، أرتجى  
وحبيبي دائماً في حَضرتي  
وهواه في البرايا محتتي  
فهو محرابي، إليه قبلي  
واعنائِي في الوَرى! واشقوتي  
جُد بوصل منكِ يشفي مهجتي  
نشأتِي منكِ وأيضاً نشوتي  
منكِ وصلّاً فهو أقصى مُنيّتي

(المصدر نفسه: ٥٤ و٥٥)

١. هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية ملامة آل عتيك، الصالحة المشهورة، كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة. توفيت بين سنوات ١٨٠ - ١٩٥ ق.



وقول أبي سعيد الخزاز<sup>١</sup> إذ يقول: «المحب يتعلل إلى محبوبه بكل شيء ولا يتسلى عنه بشيء، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره وينشد:

أسائلكم عنها فهل من مخبر  
فلو كنت أدري، أين خيم أهلها  
فمالي بنعم مُد نأت دارها علم  
وأى بلاد الله، إذ ظعنوا، أموا  
ولو أصحبتُ نعم ومن دونها النجم  
إذا لسلكنا مسلك الريح خلفها

(السلمي، ١٩٢٥م: ٢٣٢)

ومنها قول أحمد بن سهل بن عطاء<sup>٢</sup>:

غرست لأهل الحب غصنا من الهوى  
فأورق أغضانا وأينع صبوّة  
ولم يك يدرى ما الهوى أحد قبلي  
وأعقب لي مرًا من الثمر المحلي  
إذا نسبوه كان من ذلك الأصل  
وكل جميع العاشقين هواهم

(جودة نصر، ١٩٨٣م: ١٦٤)

ومنها قول أبي محمد الجريري<sup>٣</sup> حيث يقول:

قف بالديار، فهذه آثارهم  
كم قد وقفت بها، أسائلُ مخبرًا  
تبكي الأحبة حسرةً وتشوقًا  
عن أهلها، أو صادقًا، أو مشفقًا  
فأجاني داعي الهوى في رسمها  
فارقت من تهوى، فعزّ الملتقى

(المصدر نفسه: ٢٦٤)

وقول أبي علي الروذباري<sup>٤</sup> حيث يقول:

١. هو أحمد بن عيسى من أهل بغداد. صحب ذا النون المصري وغيره وهو من أئمة القوم وجملة مشايخهم وأول من تكلم في علم الفناء والبقاء. مات سنة تسع وسبعين ومائتين. (السلمي، ١٩٢٥م: ٢٢٨)
٢. هو أبو العباس بن عطاء، واسمه أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم، صحب إبراهيم المارستاني والجنيد. مات سنة تسع وثلاثمائة أو إحدى عشرة وثلاثمائة. (السلمي، ١٩٢٥م: ٢٦٥)
٣. هو أحمد بن محمد الحسين. ويقال الحسن بن محمد وكان من كبار أصحاب الجنيد، وهو من علماء ومشايخ القوم، أعتد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه، مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة الهجرية. (السلمي، ١٩٢٥م: ٢٥٩)
٤. هو أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار وهو من أهل بغداد. سكن مصر وصار شيخها ومات بها. صحب الجنيد وأبا الحسن النوري. وكان عالما فقيها حافظا للحديث. توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. (السلمي، ١٩٢٥م: ٣٥٤ و٣٥٥)

وَحَقِّكَ لَانظَرْتُ إِلَى سِوَاكَ  
بَعِينٍ مُوَدَّةً حَتَّى أَرَاكَ  
أَرَاكَ مَعْدَبِي بِفَتُورٍ لِحَظِّ  
وَبِالْخَدِّ الْمَوْرَدِ مِنْ جَنَاكَ

(اليافعي، لاتا: ٢٠٦)

وقول أبي منصور الحلاج<sup>١</sup> في سينية له:

وَقَدْ حَيَّرَنِي حَبٌّ  
وَقَدْ دَلَّ دَلِيلُ الْحَبِّ  
وَطَرَفٌ فِيهِ تَقْوِيْسُ  
أَنَّ الْقُرْبَ تَلْبِيْسُ

(جودة نصر، ١٩٨٣م: ١٦٤)

ولدينا نماذج أخرى من تلك الإرهاصات الأولى منسوبة إلى سريّ السقطي<sup>٢</sup> والجنيد<sup>٣</sup> والشبلي<sup>٤</sup> وغيرهم من أشياخ الصوفية وروّادهم، ولعلنا نلاحظ في تلك الأشعار اتجاهها قويا إلى الإهابة بالمرأة وبأحوال العشق الإنساني، بوصفها رموزا صوفية ذات طبائع غنائية، لوّح الشعراء من خلالها إلى عاطفة الحبّ الإلهي.

ومن نماذج الرباعيات المنسوبة إلى أبي سعيد أبي الخير (المتوفى سنة ٤٤١ق)

قوله:

لَيْلَةُ الْأَمْسِ حَدَّثْتُ الْحَبِيبَ  
فَأَخَذَ يَنْقُضُ الْعُهُودَ وَ  
وَأَنْقَضَتِ اللَّيْلَةُ وَلَمْ أَحْكِ  
وَلَا ذَنْبَ لِلَّيْلِ وَلَكِنْ  
أَحَادِيثَ الْحَبِّ وَالْوَصَالِ  
يَتَجَنَّى عَلَيَّ فِي دَلَالِ  
مِنْ قِصَّةِ الْحَبِّ إِلَّا الْبَدَايَةَ  
قِصَّةَ الْحَبِّ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةَ

(جودة نصر، ١٩٨٣م: ١٦٧)

١. هو الحسين بن منصور الحلاج المكنى أبا مغيث وكان جده مجوسيا اسمه محمد من أهل بيضاء فارس. نشأ الحسين بواسط وقدم بغداد. فخالط الصوفية وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه. قتل سنة تسع وثلاثمائة. (السلمي، ١٩٢٥م: ٣٠٧ و٣٠٨)

٢. هو أبو الحسن بن مغلّس السقطي. كان واحد أهل زمانه في الورع وعلوم التوحيد وهو خال الجنيد وأستاذه. توفي سنة سبع وخمسين ومائتين ببغداد. (ابن خلكان، ١٩٤٨م، ج ٦: ١٠٤)

٣. هو أبو القاسم بن محمد الخزاز القواريري الزاهد المشهور. أصله من نهاوند ومولده ونشأته في العراق وكان شيخ وقته وفريد عصره. توفي سنة سبع وتسعين ومائتين. (ابن خلكان، ١٩٤٨، ج ٤: ٢٩٥)

٤. اسمه دلف. يقال: ابن جحدر. ويقال: ابن جعفر. ويقال: اسمه جعفر بن يونس. هو خراساني الأصل، بغدادى المنشأ والمولد. ويقال: ولد في سامراء، صحب الجنيد. كان عالما فقيها على مذهب مالك. مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. (السلمي، ١٩٢٥م: ٣٣٧ و٣٣٨)



وبدخول القرن السادس الهجري، يطالعنا صوفي مغربي منسوب إلى مدينة تلمسان بقصيدة نونية حافلة بالتلويحات والرموز الغزلية، وذلك هو أبو مدين التلمساني المتوفى سنة ٥٩٤ق، الذي كان من أشياخ التصوف، ورواد الروحيين في المغرب العربي. وفي قصيدته يمتزج الرموز الغزلية بالرموز الخمرية في أسلوب تلويحي صوفي حافلٍ بالعواطف الدينيّة المشبوبة ومن هذه القصيدة قوله:

تَقَوَّلُ نَاسٌ قَد تَمَلَّكَهُ الْهَوَى	أَجَلٌ لَسْتُ فِي لَيْلِي بِأَوَّلِ مَنْ جُنَّا
خَفِيَتْ بِهَا عَن كُلِّ مَا عَلِمَ الْوَرَى	وَأَظْهَرُ لُبِّي وَالْمُرَادُ سِوَى لُبِّي
وَإِنِّي كَمَا شَاءَ الْغَرَامُ مَوْحَدٌ	وَإِن مَلْتُ تَمْوِيهَا إِلَى الرُّوضَةِ الْغَنَّا
يَذَكِّرُنِي مَرُّ النِّسِيمِ بِعَرَفِهَا	وَيُطْرِبُنِي الْحَادِي إِذَا بَاسَمَهَا غَنِّي
وَلَا عَجَبٌ مِنِّي الْحَنِينُ وَذُو الْهَوَى	إِذَا شَاقَهُ شَوْقٌ إِلَى قَصْدِهِ حَنَّا
فَلِلَّهِ مَا أَرْضَى فَوَادِي لَمَّا بِهِ	وَذَا الْحَالِ مَا أَحْلَى وَذَا الْعَيْشِ مَا أَهْنَا
أَوْافِقُ قَوْمًا ضَمَّهْمُ مَقْعَدُ الْهَوَى	وَإِن كَانَ كُلُّ مِنْهُمْ قَاصِدًا فَنَا
فَهَذَا يورَى بِالْغَزَالَةِ غَيْرَةً	وَهَذَا بَعِينُ السُّكْرِ يَسْتَمَلِحُ الْغُنَا
وَهَذَا بَلِينُ الْعَطْفِ يُبْدِي صِبَابَةً	وَهَذَا يَرِي مَيْلًا إِلَى الْمَقْلَةِ الْوَسْنَى
وَذَا فِي سُرُورٍ بِالْدُنُوذِ لَهْ	غَرَامٌ وَهَذَا بِالنَوَى يَظْهَرُ الْحُزْنََا
وَذَا بِاسْمٍ إِذْ نَالَ مَا كَانَ طَالِبَا	وَهَذَا يُسِيلُ الدَّمْعَ قَد قَرَّحَ الْجَفْنََا
وَذَا خَائِفٌ مَن قَطَعَهُ بَعْدَ وَصَلِهِ	وَذَا بِالرِّضَى مَن حَالِهِ وَجَدَ الْأَمْنََا
وَهَذَا مَحَبٌّ بِالصَّدُودِ مَنَعَمٌ	وَذَا آخِذٌ بِالصَّدِّ مَن قَرَبَهُ مُضْنَى

(المصدر نفسه: ١٦٨)

وبانتقالنا إلى القرن السادس الهجري، يطلع صوفيان كبيران بمجموعة من القصائد الغنائية ذات الطابع الرمزي. أما أولهما شرف الدين عمر بن الفارض<sup>١</sup> المتوفى سنة ٦٣٢ق. الذي يمثل نهاية النضج الفني للشعر الصوفي في المشرق، وأما ثانيهما فهو محي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ق. الذي كان يسهم إلى جانب كتبه الميتافيزيقية بأشعار لا يخلو بعضها من قيمة فنيّة حيّة.

١. هو عمر بن الحسين بن علي بن المرشد بن علي، شرف الدين أبو حفص. الملقب بسليمان العاشق. ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦ق ومات فيها سنة ٦٣٢ق. (محمد ناصر الدين، ١٩٩٠م: ٣)

وكثيرا ما يعول ابن الفارض في التغنى بحبه الإلهي على ذكر الشعراء العذريين الذين هاموا بمعشوقاتهم، وتغنوا بهن في قصائد رقيقة. وها هو ذا يقول في تائيته الكبرى:

فكلّ مليح حسنه من جمالها	مُعارٌ له، بل حسنٌ كلّ مليحة
بها قيسٌ لبني هام، بل كلّ عاشقٍ	كـمـجـنـون ليلي، أو كُتـيـر عَزَّة
وتظهرُ للعشاق في كلّ مظهرٍ	من اللبس في أشكال حُسن بدية
ففى مرّةٍ لبني، وأخرى بثينة	وأونةٌ تدعى بعزّة عزّت
وما القومُ غيري في هواها، وإنّما	ظـهـرتُ لهم للبس في كل هيئة
ففى مرّةٍ قيسا وأخرى كثيرا	وأونةٌ أبدو جميلٌ بثينة

(محمد ناصر الدين، ١٩٩٠م: ٤٤ و٤٥)

ومن النماذج التي أهاب فيها التركيب الرمزي بقوالب أسلوبية موروثية عن شعر الغزل الذي امتلأ بوصف الرحلة المهلكة والإبل الضامرة والصحارى الشاسعة وبذكر الأماكن والأودية والجبال، قول ابن الفارض حيث يقول:

أرجُ النسيم سرى من الزوراء	سَحْرًا، فأحيا ميّت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجد عرفه	فالجومنه مُعَبَّرُ الأرجاء
يا راكب الوجناء، بلغت المنى	عُج بالحمى، إن جُزت بالجرعاء
وإذا أتيت أثيل سلع، فالتقا	فالرّقتين، فلعلع فشطاء
واقر السلام عريب ذياك اللوى	من مُغرم، دَنِف، كُتِيب، نائى

(المصدر نفسه: ١٩ و٢١)

وقوله في قصيدة أخرى:

أ وميضُ برق، بالأبيرق لاحاً،	أم فى رُبى نجد، أرى مصباحاً؟
أم تلك ليلي العامريّة أسفرت	ليلاً، فصيرت المساء صباحاً؟
يا راكب الوجناء وقيت الردى،	إن جُبت حزننا، أو طويت بطاحا
وسلكت نمان الأراك، فُعج إلى	واد، هناك عهدته فيّاحا
وإذا وصلت إلى تيّات اللوى،	فانشد فؤاداً، بالأبيطح، طاحا

(المصدر نفسه: ١٠٤ و١٠٥)



وعلى هذا النحو نقرأ قول ابن الفارض إذ يقول:

هل نارٌ ليلي بَدَتْ ليلاً بذي سلم      أم بارقٌ لاحَ في الزوراء، فالعلم  
أرواحٌ نَعْمَانِ هَلَّا نَسَمَةٌ سَحْرًا      وماءٌ وجرةٌ هَلَّا نَهْلَةٌ بِفَمٍ

(المصدر نفسه: ١٨٥)

وقوله في قصيدة أخرى:

خَفَّفِ السَّيْرَ وَاتَّئِدْ، يَا حَادِي      إِنَّمَا أَنْتَ سَائِقٌ بِفَوَادِي  
مَا تَرَى الْعَيْسَ بَيْنَ سَوَاقٍ وَسَوَاقٍ      لَرَبِيعِ الرُّبُوعِ، غَرَّتِي، صَوَادِي  
وَبَلَّغْتَ الْخِيَامَ، فَاْبَلِّغِ سَلَامِي،      عَنِ حِفَاظِ، عُرَيْبِ ذَاكَ النَّادِي  
مَا أَمْرٌ الْفِرَاقِ، يَا جَبِيرَةَ الْحَا      سِيٍّ وَأَحْلَى التَّلَاقِ بَعْدَ انْفِرَادِي

(المصدر نفسه: ١٠٩-١١١)

ونلاحظ في هذه الأشعار إهابة ابن الفارض بالشكل التقليدي للقصيدة الغنائية، وامتزاج المرأة بالطبيعة الحية في تنوع مظاهرها وتقلب أحوالها، وإحاحه الشديد على ذكر الأودية والمرايع والأماكن التي كان ورودها في الشعر القديم علامة على اغتراب مكاني أملته ظروف البيئة والمناخ.

وأما من قصائد ابن عربي المصطبغة بالرمز الغزلي في إهابته بوصف الرحلة وديار المحبوبة والتفجع، والتشكي وفي إحالته على دلالات تلويحية مرتبطة بالأديان، قوله:

مَا رَحَلُوا يَوْمَ بَانُوا الْبِزْلَ الْعَيْسَا      إِلَّا وَقَدَحَمَلُوا فِيهَا الطَّوَاوَيْسَا  
مَنْ كُلُّ فَاتِكَةِ الْأَلْحَاطِ مَالِكَةِ      تَخَالُهَا فَوْقَ عَرْشِ الدَّرِّ بَلْقَيْسَا  
إِذَا تَمَشَّتْ عَلَى صِرْحِ الزَّجَاجِ تَرَى      شَمْسًا عَلَى فَلَكَ فِي حِجْرِ إِدْرِيسَا  
تُحْيِي إِذَا قُتِلَتْ بِاللَّحْظِ مَنْطِقَهَا      كَأَنَّهَا عِنْدَ مَا تُحْيِي بِهِ عَيْسَا

(ابن عربي، ١٩٦١م: ١٦ و١٧)

وتبدو هذه القصيدة حافلة بصور حسية متنوعة، أشربت دلالات تلويحية ذات علاقته بالرمز الذي يهيمن على الأبيات كلها.

ومن قصائد ابن عربي الغزلية التي تهيب بلغة العشاق العذريين في صياغة رمزية

موحية قوله:

سلامٌ على سلمى ومن حلَّ بالحمى  
وماذا عليها أن تَرُدَّ تحيةً  
سَرَوْا وظلامُ الليل أرخى سُدوله  
أحاطتْ به الأَشواقُ صونا وأرصدتْ  
فأبدت ثناياها وأومضَ بارقُ  
وقالت: أما يكفيه أنى بقلبه

وَحَقٌّ لِمَنلى رِقَّةً أن يُسَلِّما  
علينا ولكن لا احتكام على الدُّمى  
فقلت لها صبا غريبا متيما  
له راشقاتُ النَّبلِ أَيْانَ يَمِّما  
فَلَمَ أدْرِ مَنْ شَقَّ الحنادسَ منهُما  
يُشاهدنى فى كلِّ وقتٍ... أما أما؟

(المصدر نفسه: ٢٥-٢٧)

وقوله فى أبيات له:

بان الغراءُ وبانَ الصبرُ إذ بانوا  
سألْتُهُم عن مَقيلِ الركبِ قِيلَ لنا:  
فقلتُ للريحِ: سيرى وألحقى بِهِمُ  
وبلغِيهِم سَلاما مِن أخى شَجِنُ

بانوا وهُم فى سويدا القلبِ سَكَانُ  
مَقيلُهُم حيثُ فاحَ الشبْحُ والبَانُ  
فإنَّهُم عندَ ظِلِّ الأيْكِ قُطانُ  
فى قلبه من فراقِ القومِ أشجانُ

(المصدر نفسه: ٣٠ و٣١)

هذه الأبيات وغيرها ممَّا يُهيب بمكنونات رمز الأنتى، تلتبس بشعر الغزل العذرى أيما التباس حتى أنه ليخيّل لنا أننا نقرأ ابن الملوّح، والعباس بن الأحنف، وجميل بثينة، وكثير عزة، وغيرهم من شعراء الغزل العفيف.

وما من شك فى أنه يرمز فى هذه الأبيات وغيرها. وبهيمن مذهب ابن عربى فى التأويل الرمزي على تراث الشعر الصوفى.

ب. استخدام الخمرة فى الشعر الصوفى

تحوّلت الخمرة فى الشعر الصوفى، كما تحوّلت المرأة فى الغزل الصوفى إلى رمز عرفانى على ما كان الصوفية ينازلون من وجد باطن ويظهر لنا التبع فى طبقات الصوفية على أن هذا التحوّل بدأت بواكيره فى القرن الثانى الهجرى وممَّا يظاهر هذا الزعم دَوْران المصطلحات الخاصة بأحوال السكر، والصحو بين متصوفة الطبقة الأولى وقبلهم. وأوّل



من استخدمها رمزا للمعرفة هي رابعة العدوية حيث تقول:

كأسى وخمري والنديم: ثلاثة  
وأنا المشوقة في المحبة: رابعة  
كأس المسرة والنعيم يديرها  
ساقى المدام على المدى متتابعة  
فإذا نظرتُ فلا أرى إلا له  
وإذا حضرتُ فلا أرى إلا معه  
يا عاذلي! إنى أحبُّ جماله  
تالله ما أذنى لعذلك سامعه  
كم بتُّ من حُرقي وفرط تعلقي  
أجرى عيوننا من عيوني الدامعه  
لا عبرتى تُرقا، ولا وصلى له  
يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

(بدوى، ١٩٧٨م: ١٧٨)

في هذه وقد أورد القشيري في رسالته أن يحيى بن معاذ الرازي كتب إلى أبي يزيد البسطامي<sup>٢</sup> (المتوفى سنة ٢٤٦): «ههنا من شرب كأسا من المحبة، لم يظمأ بعدها فكتب إليه أبويزيد: عجبٌ من ضعف حالك، ههنا من يحتسى بحار الكون، وهو فاغر فاه يتزيد». (قشيري، لاتا: ٣٩)

وقد ساق صاحب اللمع المتوفى في القرن الثالث الهجري أبياتا من الشعر لم تنسب لقائلها، إلا أنها رغم ذلك تشير إلى قدم المصطلح الخمرى في شعر الصوفية، ومن هذه الأبيات:

كفاك بأن الصحو أوجد كآبتى  
فكيف بحال السكر والسكر أجد  
جحدت الهوى إن كنتُ مُدجّل الهوى  
عيونك لى عينا تُعصُّ وتُبصر  
نظرتُ إلى شىءٍ سواك وإنما  
أرى غيرنا أحلام نوم تقدر  
وأنشد بعضهم:

عجبتُ لمن يقولُ ذكرتُ ربّي  
فهل أنسى فأذكرُ مانسيّت  
شربتُ الحبَّ كأسا بعد كأسٍ  
فما نفذ الشرابُ ولا رويتُ

(جودة نصر، ١٩٨٣م: ٣٤١)

١. هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، أحد رجال الطريقة. خرج إلى بلخ وأقام فيها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين. (ابن خلكان، ١٩٤٨م، ج ٦: ١٦٥)  
٢. هو طيفور بن عيسى بن سروشان وكان جده سروشان هذا مجوسيا فأسلم وهم ثلاثة إخوة: آدم، وطيفور، وعلى. وكلهم كانوا زهادا وعبادا وأرباب أحوال. مات أبويزيد سنة إحدى وستين ومائتين. (السلمى، ١٩٢٥م: ٦٧)

وتطالعنا لغة الخمريين الشعرية بعد إذ أشربت طابع الرمز العرفاني، في أبيات منسوبة لأبي منصور الحلاج وهو من صوفية القرن الثالث الهجري وقد روى هذه الأبيات، أبو الحسين الحلواني إذ قال: حضرت الحلاج يوم وقعته فأتى به مسلسلاً مقيداً، وهو يتبختر في قيده، وهو يضحك ويقول:

إلى شىء من الحيفِ	نديمى غير منسوب
كفعل الضيف بالضيفِ	سقانى مثلما يشرب
دعا بالنطع والسيِّفِ	فلما دارت الكاسات
مع التَّينِ فى الصيفِ	كذا من يشربُ الراحَ

(الشعراني، ١٩٢٥م، ج ١: ٩٣)

لعلنا نلاحظ في الأبيات السابقة شيوع الألفاظ التي استعارها الحلاج من خمريات العصر العباسي من مثل النديم، ودوران الكأس، وتعاطى الراح؛ وإن خرج بها صاحبها إلى التعبير عن محتته الشخصية التي تلخص لنا تلك النهاية المأساوية الفاجعة التي أفضى بالحلاج إليها سكره، ووجده الصوفي ممّا جعله يذيع على الناس في أسواق بغداد بلغة لم يالفوها، شيئاً من الأسرار العرفانية.

وهكذا نتعرف على حقيقتين أساسيتين: الأولى أن للخمريات الصوفية بواكير ترجع إلى منتصف القرن الثاني الهجري. والثانية أن الصوفية أفادوا من شعر الخمر الذي ازدهر في العصر الأموي، وازداد ازدهارا ونماءً في العصر العباسي، وألّموا منه في ألفاظهم التوقيفية بمصطلحين يسيطر عليهما طابع التقابل الوجداني فعندهم أن السكر يقابله الصحو، كما أن البسط يقابله القبض وهكذا في معظم مصطلحهم وألفاظهم التي كانوا يشيرون بها إلى أذواق وأحوال ومقامات. ولكننا لم نظفر في تلك البواكير الشعرية الأولى بخمريات مطوّلة، وإنما ظهرت هذه المطولات في زمن متأخر يرجع إلى أواسط القرن السادس الهجري ومن بين تلك النماذج الخمرية قول أبي مدين التلمساني (ولد سنة ٥١٤ الهجرية ومات سنة ٥٩٤ الهجرية)، حيث يقول:

أدرها لنا صرفاً ودع مزجها عنّا      فنحن أناسٌ لانرى المزج مُدكّنّا



وَعَنَّ لَنَا فَالْوَقْتُ قَدْ طَابَ بِاسْمِهَا  
 عَرَفْنَا بِهَا كُلَّ الْوُجُودِ وَلَمْ نَزَلْ  
 هِيَ الْخَمْرُ لَمْ تَعْرِفْ بِكْرَمٍ يَخْصُهَا  
 مَشْعَشَعَةٌ يَكْسُو الْوَجْوهَ جَمَالُهَا  
 حَضَرْنَا وَغَبْنَا عِنْدَ دَوْرِ كُووسِهَا  
 وَأَبَدْتُ لَنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ إِشَارَةً  
 وَلَمْ تُطِيقِ لِأَفْهَامٍ تَعْبِيرَ كُنْهَهَا  
 نَصَحْتِكَ لَا تَقْصِدِ سِوَى بَابِ حَانِهَا  
 مَوَانِعْنَا مِنَّا حَظْوُظٌ نَفُوسِنَا  
 تَجَلَّتْ دَنُوًّا وَاخْتَفَتْ بِمِظَاهِرِ  
 وَمَا الْكُونُ إِلَّا مِظْهَرٌ لْجَمَالِهَا  
 لَهَا الْقَدَمُ الْمَحْضُ الَّذِي شَفَعَتْ بِهِ  
 يُعِيدُ وَيُيَسِّدُ فَعَلُهَا كُلَّ مَحْدَثِ  
 أَذَاكِرْهَا قَفٌّ عِنْدَ حَدِّكَ وَاقْفَا  
 أَتَزَعُمُ فِيمَا قَلْتَ أَنْكَ صَادِقُ  
 لَقَدْ رُمْتَ مَا لَا تَسْتَطِيعُ مَرَامَهُ  
 إِلَيْهَا جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ مَشُوقَةٌ

(المصدر نفسه: ٣٥٩ و ٣٦٠)

ونلاحظ أنّ الشاعر ألمّ في هذه القصيدة بالتراث الخمري الذي كان قد بلغ من الناحية الأسلوبية تمام النضج والاكتمال، مثلما ألمّ شعراء الصوفية من قبل بتراث الشعر الغرامي.

وإننا لنقع في قصيدته على ما يصادفنا في خمريات العصور السابقة من وصف الخمر بالصرافة، وبأنها مشعشة فيها وضاءة، وسناء، ونعتها بأنها لطيفة صافية، قد عتقت منذ عهد قديم، ويتحدّث الشاعر كما كان الخمريون يتحدّثون في قصائد هم عن السكاري، يقصدون أبواب الحانات، وعن الكؤوس دائرة على الشاربين الذين استغرقهم السكر،

وسرى فيهم الخمار.

وهكذا في النصف الثاني من القرن السادس الهجري نلتقى بشهاب الدين السهروردي<sup>١</sup> المعروف بالمقتول وشيخ الإشراق والذي كان من أشيخ التصوف، نراه يمتزج الرموز الغزلية بالرموز الخمرية في قصيدته الحائية المشهورة، في أسلوب تلويحي صوفي حافل بالعواطف الدينية والصوفية، حيث يقول:

أبدا تحنُّ إليكمُ الأرواحُ	ووصالكم ريحانها والراحُ
وقلوبُ أهلٍ وداكم تشتاكم	وإلى لذيذِ لقاءكم تتراحُ
وارحمنا للعاشقين تكلفوا	ستر المحبّة، والهوى فضاحُ
بالسرِّ إن باحوا تبأح دماءهم	وكذا دماءُ العاشقين تبأحُ
ركبوا على سُفنِ الوفا ودُموعهم	بحرٌ وشِدَّةُ شوقهم ملاحُ
عودوا بنور الوصل من غسق الجفا	فالهجر ليلٌ والوصالُ صباحُ
وتمتعوا، فالوقتُ طابَ بقربكم	راق الشرابُ، وراحتِ الأقداحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم	أبدا، فكلّ زمانهم أفرأحُ
قُم يانديمُ إلى المُدام، فهاتِها	في كأسِها، قد دارتِ الأقداحُ
من كرمِ إكرام، بَدَنٌ ديانة	لاخمرٍ قد داسها الفلاحُ <sup>٢</sup>

### النتيجة

والواضح أن الأبيات التي جاء ذكرها ألفاظ متكررة ولا نشاهد لفظاً، أو تعبيراً جديداً، لم نشاهده عند الشعراء الخمريين من قبل ومع هذا، فقد أضاف الصوفية إلى خمرياتهم شيئاً، ممّا يند عن الموروث ويخرج عن المتداول المألوف ممّا يعني أنّهم انفرادوا برموز خاصة أداروها حول وصف الخمر، بأنّها لم تعتمر من الكرم، وأنّها لا توعى في زقاق

١. هو شهاب الدين يحيى بن حبش، متصوف وفيلسوف، ولد سنة ٥٥٠ق و قتل سنة ٥٨٧ ق في حلب.

٢. ترجم هذه الأبيات المشهورة الأستاذ الفاضل والشاعر الكبير الدكتور سيد أمير محمود أنوار، أستاذ الأدب والعرفان بجامعة طهران، إلى اللغة الفارسية والتي أولها:

شوق ديدار شماي قدسيان در جان ماست	وصلتان شادي ما وباده وريجان ماست
قلبهاي دوستداران شما در اشتياق	لذت ديدارتان آرام قلب وجان ماست



المرأة والخمرة رمزان في الشعر الصوفي

ودنان، وإن كانوا قد عدلوا في بعض أشعارهم عن هذا الوصف. حتى نلتقى في أواخر القرن السادس، وأوائل القرن السابع الهجري بصوفي كبير، استخدم الخمر رمزا في قصيدته الخمرية، في نطاق واسع وهو ابن الفارض المصري المشهور بسultan العاشقين، والذي يعدّ رائد الشعر الخمرى الروحي في الأدب العربي.

المصادر والمراجع

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد. ١٩٤٨م. *وفيات الأعيان*. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- ابن عربي، محيي الدين. ١٩٦١م. *ترجمان الأشواق*. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.
- بدوي، عبدالرحمن. ١٩٧٨م. *شهيدة العشق الإلهي*. الكويت: وكالة المطبوعات.
- جودة نصر، عاطف. ١٩٨٣م. *الرمز الشعري عند الصوفية*. الطبعة الثالثة. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
- السلمي، عبدالرحمن. ١٩٢٥م. *طبقات الصوفية*. تحقيق نور الدين سريية. الطبعة الأولى. القاهرة: جامعة الأزهر للنشر والتأليف.
- الشعراني، عبدالوهاب. ١٩٢٥م. *الطبقات الكبرى*. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة الأزهر.
- محمد ناصر الدين، مهدي. ١٩٩٠م. *ديوان ابن الفارض*. الطبعة الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.
- اليافعي، عبدالله بن أسعد. لاتا. *روض الرياحين في حكايات الصالحين*. لاتا.

## زن و باده دو رمز در شعر صوفیانه

یوسف هادی پور نهزمی\*

زن و باده و واژگان مرادف با دو کلمه مذکور و آنچه در ارتباط با این دو واژه است، به عنوان نمادهایی مهم در شعر صوفی به شمار می‌آید که شاعران متصوفه جهت دلالت بر محبوب و عشق الهی بکار گرفته‌اند.

پژوهندگان ادبیات متصوفه خود آگاهند که این گروه در بسیاری از اشعارشان عنصر زن را همچون نمادی برای دلالت بر خداوند سبحان ذکر کرده‌اند. شعر متصوفه از این جهت، شعری غزلی است که عشق آسمانی را با عشق زمینی در کنار هم گردآورده است. شایان ذکر است که موضوع عشق پاک و عاطفی در قالب غزل قدیم، پیش از شکل‌گیری ادبیات صوفیانه پدید آمده، به بلوغ فنی خود رسیده است. مقاله پیش رو به بررسی نمونه‌هایی شعری که برخی از این نمادها را در بر گرفته است می‌پردازد.

کلیدواژه‌ها: زن، باده، نماد، شعر صوفی.

\*. عضو هیئت علمی دانشگاه آزاد اسلامی واحد کرج.